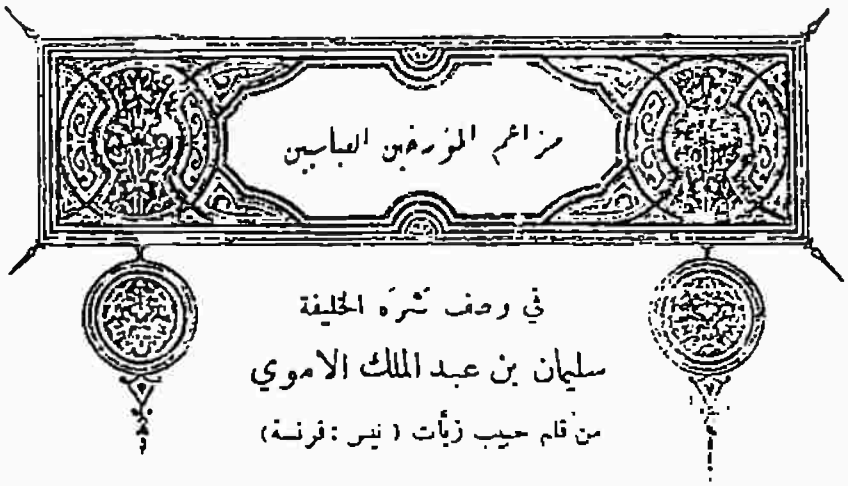

لهم يكتف العباسيون ، حين ادالهم الدهر من بني أمية، بتتبع رجالهم بالقتل والإفناء والتشريد ، وتقويض ابنيتهم وقصورهم ، وانتهاك حرمة قبورهم لإحراق رُمَمهم وتذرية رمادها في الريح . بل جدّوا ايضاً في محو كل ذكر لهم، وتشويه كل خبر عنهم، وتعفية كل اثر من مصانعهم . حتى لم يستنكف المأمون ، على فضله وجلالة قدره، من نزع اسم « عبدالملك » ابن مروان من فسيفساء قبة الصخرة ؛ وإنزال اسمه « عبدالله » في مكانه ، على شدة تفاوت ما بين الزمانين ، كما لا يزال التاريخ المرقوم شاهداً عليه . ولا شك ان هذه الضراوة على ازالة كل حديث صحيح عن الامويين كانت ايضاً هي العامل الاكبر في تسديد كل الكتابات ، وابادة كل السجلات المعاصرة للخلفاء الدمشقيين . بحيث لم يبق الينا اليوم من اخبار ذلك العهد مؤلف واحد يمثل لنا تلك الايام ؛ ويحكي ، بغاية الصدق والامانة ، ما تقدم من الانباء والوقائع ؛ ويصف اخلاق من درج من الرجال والقبائل ، وصفاً منزّهاً عن كل تعصّب وهوى . ولما كان الناس على دين الملوك في كل زمان ومكان تقرّب الكتبة ، والمؤرخون ، والقصاص ، والمحدثون في بغداد من رضى العباسيين بوضع الاخبار والمقالات في تصوير الحوادث ، ووصف الرجال على الوجه الذي كانوا يعلمون انه اجدر بالحظوة لدى السلطان وابلغ في الغضّ من الدولة البائدة . ولذلك لا نكاد نجد اليوم في كل هذه الاسفار والصفحات التي ورد فيها شرح اخبار الامويين اقلّ انصاف واعتدال في الكلام عليهم . فضلاً عما

هنالك احياناً كثيرة من الطعن واللعن ، والازراء وسوء الثناء ، او المجازفة والاختلاق في نقل الروايات ، وايراد النوادر والنكات .

ومن هذه الاخبار والاوصاف التي ذهب فيها الإغراق كل مذهب ، وتبارى الندماء في التنادر بها في مجالس دار السلام ، وصف شرهَ سليمان بن عبد الملك الاموي ، وقدرته العجيبة ، فيما زعموا ، على الازدراد والهضم ؛ الى حدّ يفوق كل تقدير ويتجاوز كل ادراك ، وحسبنا للدلالة على هذه المغالاة في التمثيل والتهويل ان ننقل ما حكاه اثنان فقط من مؤرخي العباسيين وهما ابو الفرج ابن الجوزي ، وابو المظفر بن قزغلي[1] ، اي الجدّ والسبط ، في كتابيهما المشهورين : المنتظم ، ومرآة الزمان .

قال ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي باسناده الى عبدالله بن الحارث :

« كان سليمان بن عبد الملك اكولًا . وكان بينه وبين عبد الله (ابن سليمان) وصلة . قال : قال لنا سليمان يوماً : « اني قد امرت قيّم بستان لي ان يحبس على الفاكهة ولا يجني منها شيئاً حتى تُدرك . فاغدوا عليّ مع الفجر — يقول لاصحابه

---

١) جاء في حاشية شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٥ : ٣٦٦) تعليق لطابع الكتاب على وفاة ابي المظفر سبط ابن الجوزي سنة ٦٥٤ زعم فيه ان صحة اسمه يوسف بن قرغلي (بالقاف والنون) قال : « في الاصل (قزعل) وفي كثير من كتب التاريخ كالنجوم والاعلام وابن الجزري (قزأوغلي) وكلاهما وما يتصحف منها خطأ . ويسمى بعضهم لتمليله تمليلًا اعجميًا فاسدًا . والصواب (قرغلي) كما في نسخة قديمة من الوافي بالوفيات وابن خلكان وغيرهما من كتب الادب » .

وقد عنّ لنا ونحن في أكسفرد ، ان نبحث في خزانتها في نسخة من الوافي بالوفيات عن صحة هذا الاستدراك ، فاكان اشدّ انذهالنا حين وجدنا الصفدي يقول في ترجمة ابي المظفر ما نصّه بالحرف ، ننقله لما فيه من الاشارة الى مجازفات صاحب مرآة الزمان وهي بعض موضوع مقالتنا الحاضرة . قال :

« يوسف بن قزغلي بالقاف والزاي والغين المعجمة واللام ابن عبدالله الامام المؤرخ شمس الدين ابو المظفر . . . سبط ابن الجوزي . . . وكان والده قزغلي من موالي الوزير عون الدين بن هبيرة . . . ويقال في والده زغلي بحذف القاف . ثم اشار الى مرآة الزمان فقال : « وانا ممن حسده على التسمية . وهي لائقة بالتاريخ . كأن الناظر في التاريخ يعاين من ذُكر فيه في مرآة . الا ان في المرآة صدأ المجازفة منه رحمه الله تعالى في اماكن مروقة » (Seld. arch. a. 29, fol. 115 ؛

الذين كان يأنس بهم — لنأكل الفاكهة في برد النهار.» فغدونا في ذلك الوقت. وصلى الصبح وصلينا. ثم دخل فدخلنا معه. فاذا الفاكهة متهدّلة على اغصانها. واذا كل فاكهة مختارة قد ادركت كلها. فقال: كلوا. ثم اقبل عليها. فاكلنا بمقدار الطاقة. واقبلنا نقول: «يا امير المؤمنين، هذا العنقود». فيخرطه في فيه. «يا امير المؤمنين، هذه التفاحة»، كلما رأينا شيئاً نضيجاً اومأنا اليه، فيأخذه فيأكله. حتى ارتفع الضحى ومتع النهار. ثم اقبل على قيّم البستان فقال: «ويحك، يا فلان اني قد استجمت فهل عندك شيء تطعمنيه؟» قال: «نعم، يا امير المؤمنين، عِناق حَولية حمراء.» قال: «ائتني بها ولا تأتني معها بخبز.» فجاء بها على خوان لا قوائم له. وقد ملأت الخوان. فاقبل يأخذ العضو، فيجيء معه. فيخرطه في فيه، ويلقي العظم، حتى اتى عليها. ثم عاد لاكل الفاكهة. واكل ملياً. ثم قال للقيم: «هل عندك شيء تطعمنيه؟ قد جمت.» قال: «عندي سويق كانه قطع الاوتار. وسمن وسكر.» قال: «افلا اعلمتني هذا قبل؟ ائتني به وأكثر. فجاء بقعب يقعد فيه الرجل. وقد ملأه من السويق قد خلطه بالسكر وصبّ عليه السمن. والى جرّتي ماء بارد وكوز. فاخذ القعب على كفه. واقبل القيّم يصبّ عليه الماء. فيحركه. حتى كفأه على وجهه فارغاً. ثم عاد للفاكهة، فاكل ملياً. حتى هجرت عليه الشمس، ودخل، وامرنا ان ندخل الى مجلسه. فدخلنا وجلسنا. فما مكث ان خرج علينا. فلما جلس قام كبير الطباخين حياله يُؤذنه بالغداء. فأومأ ان إيتِ بالغداء. فوضع يده فاكل. فما فقدنا من اكله شيئاً.»[1]

هذا ما رواه الجدّ بكل جدّ. ووقف عليه السبط ابن قزغلي فاحب ان يجاريه في الإغراب ويربي عليه في الاغراق والاطناب، فقال:

«سليمان بن عبد الملك... قال الواقدي: كان شرهاً اكولاً، يأكل في اليوم مئة رطل. ويتناول في ساعة واحدة اربعين رقاقة مع عدة خرفان... وقال هشام: كان الطباخ يأتيه بالسفايد، وعليها الدجاج المشوي. فيدخل يده في كمه،

---

(١) جزء من المنتظم في تاريخ الملوك والامم فيه اخبار سنة ٩٦ الى ١٣٥ (Bodleian Library Arab. Poc. 255, fol. 4)

وعليه ثياب الوشي ، فيمسك السفُّود بيده ويأكل منه اربعين دجاجة . وقال المدائني: حجّ سليمان فقال لقيّمه على طعامه: «أطعمني من خرفان المدينة ». ودخل الحمام وخرج . وقد شوى له اربعة وثمانين خروفاً . فأكل من كل خروف جارحة مع شحم كلية . حتى اتى على آخرها . ثم دعا الناس الى الطعام فأكل معهم مثل ما كان يأكل . واتى الطائف في حجته، فسأله ابن ابي زهير الثقفي ان ينزل عليه فنزل . فجاءه برمّان . فأكل منها مئة وسبعين رمانة ، وخروفاً ، وست دجاجات ، وعشرين رقاقة . ثم اكل مع الناس .»[1]

« قال الاصمعي: كنت حاضراً عند الرشيد يوماً فجيء بصناديق من ذخائر بني أمية . ففتح صندوقاً منها . فوجد فيه ثياب الوشي . وقد سال الدهن على صدورها واكمامها . فسأل الناس عن ذلك فلم يجد عندهم علماً . وكان عنده رجل من بني أمية . فقال: يا امير المؤمنين، هذه ثياب سليمان بن عبد الملك . كان شرهاً اكولاً . »

وفي هذه الشهادة المنسوبة للاصمعي نظر لا يخفى على الناقد البصير . لان بين الرشيد وسليمان بن عبد الملك نحو نصف قرن . ويبعد جداً ان تكون مثل هذه الثياب المتسخة بالدهن حُفظت كل هذه المدة « بين الذخائر » وسلمت من كل نهب وسلب وضياع وبلى وآفة ؛ بين كل هذه الفتن والحروب والوقائع التي توالت على دمشق في خلال كل هذه السنين . فضلاً عن ان الخلفاء لم يكونوا يضنّون بمثل هذه الملابس المبتذلة ويذخرونها دون ان يخلعوها على خدمهم وبعض الوافدين عليهم . وقد اعتاد بعض الخاصة قديماً ان يجودوا حتى بقمصانهم وسراويلهم على سائليهم ومستميحيهم . واذا صحّ ان بعض ثياب سليمان بن عبد الملك حفظت بطريق الاتفاق ، او لحاجة اخرى، فمن الغريب ان يكون العباسيون تكلفوا نقلها من دمشق الى بغداد ، دون ان يعلموا ما في صندوقها ويهبوه لبعض رجالهم ؛ او يكون هذا الصندوق بقي مصوناً مقفلاً كل ايام السفاح والمنصور والمهدي والهادي حتى يكون الرشيد اول مطلع عليه . فلا شك ان

---

١) الجزء ٦ و٧ من مرآة الزمان (British Museum Add. 23277, fol. 116a)

هذه الشهادة موضوعة لاثبات تهمة سليمان بن عبد الملك بالشره والقذارة.

وكأن المدائني لم يقنع بكل ما حشاه في ساعة واحدة في جوف سليمان من الرقاقات والدجاج والخرفان والرمان. وعنده ان المعدة الاموية تتسع لما فوق ذلك، فاضاف الى ما تقدم نادرة، بل معجزة اخرى، فقال، فيما رواه ابو المظفر ايضاً في ترجمة سليمان:

«اتاه دهقان بدابق، ومعه زنبيل مملوء بيضا، وآخر تيناً اخضر. فقدمه اليه. فجلس يقشر البيض ويأكل كل بيضة بتينة حتى اتى على الزنبيلين. ثم اتوه بقصعة مملوءة مخاً مخلوطاً بالسكر. فاكل الجميع. وكان قد اكل قبل التين والبيض والمخ ثلثمائة وستين شاهلوكة وهي عين البقر»[1] (الخرخ).

ومن العجب ان يكون عُدّ الخرخ ولم يُعَدّ التين والبيض مبالغة في الضبط والدقة في الرواية ولكن المدائني لم يكن ليجهل ان المعى الذي اتسع لمثل هذه التلال من الطعام والفاكهة، ولو كان معى أموياً، لا بد له يوماً ان يعجز ويخون صاحبه. ولذلك لم ير مناصاً، مع معرفته بما اشتهر من موت سليمان بالطاعون، من ان يزعم انه بعد ان ابتلع ما ابتلع «مرض والتخم ومات».

وهكذا، وعلى مثل هذا الشكل من المجازفة والتعصب وقلة الانصاف، دوّن المؤرخون العباسيون اكثر اخبار الخلفاء الامويين.

---

١) جزء من مرآة الزمان في خبار سنة ٩٦ الى ١٢٠ غير مرقوم. (Bodleian Library, Arab. Poc. 371)

الصفحة الاخيرة من فرض عيد الصليب والاولى من الميمر في نسخة حلب

خط البطريرك سركيس الرزي سنة ١٥٥٨م

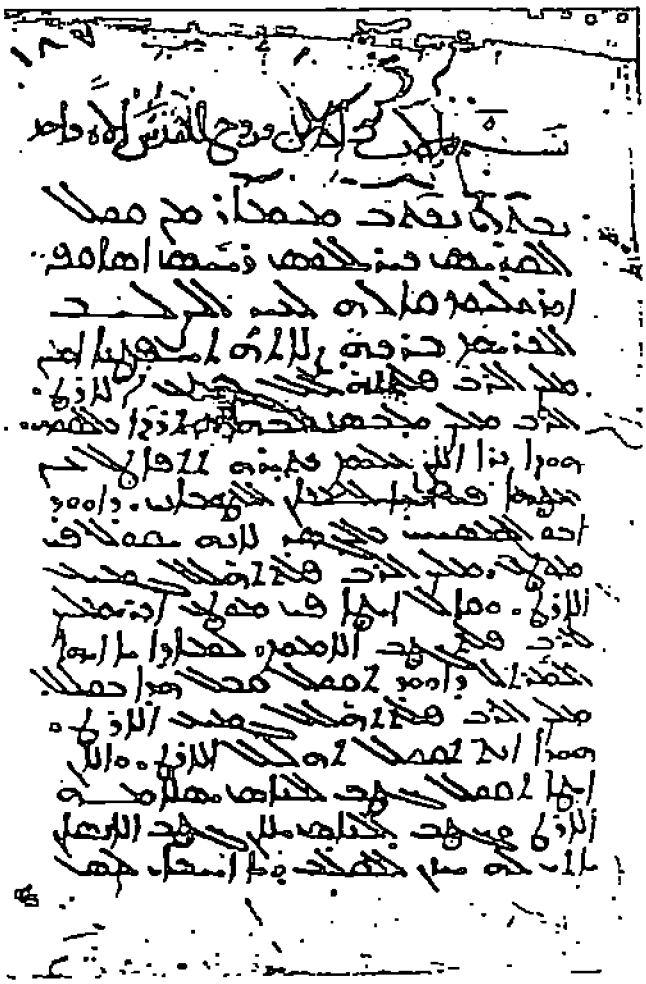

الصفحة الاولى من نص بكركي

خط المتوري يوحنا بن ايوب سنة ١٥٥٧ م